الانقلابات الفجائية فى التاريخ

محاضرة السير تشارلس ادمان فى الجمعية التاريخية فى اكسفورد

بدأ المحاضر ببيان ان خطابه معد ليكون احتجاجا ضد الفكرة الميكانيكية الحتمية فى تأويل التاريخ كسلسلة من العمليات التطورية المنتظمة الوقوع ، نتائجها حتمية ومترتبة على مقدمات و نتائج من السبب و النتيجة . و يميل المؤرخون الحديثون الى كد افهامهم وانعمال قرائحهم الى البرهان على أن حوادث كتكوين الامبراطورية الثورمانديه ونمو البابويه فى القرون الوسطى ونشوء الدستور الانجليزى ماهى الا تطورات لاعظم منها لاسباب حتمة الوقوع . والحقيقة التى أجاهر بها ان تاريخ البشريه يرجع الى عمل الانقلابات الفجائية بقدر ماهو نتيجة للعوامل التطورية فليس هو سلسلة منطقية من الحوادث انما طائفة من الوقائع تتأثر بمصادفات لاسبيل الى تأويلها او نعرف كنهها غير حتمة الوقوع وليس يشير فى ذلك بوجه خاص الى مصادفات الظواهر الطبيعية التى لاسبيل للانسان فيها كالزلازل وثوران البراكين وجفاف المناطق التى كانت حسنة الرى والتغيير الفجائى فى مجرى الانهار الكبيرة . وانتشار الآفات والاوبئة فهذه أثرت فى مناسبات خاصة فى تاريخ العالم العام بطريقة لم تفهمها للآن . بيد ان الزلازل والاوبئة اثرت فى تاريخ البشر بقدر اقل كثيرا من ظهور شخصيات بارزة على مسرح الحوادث ظهورا منقطع الوقوع . وان مدرسة ضعاف المؤرخين الذين يلقننا ان التاريخ هو قصة الشعوب وليس قصة الوقائع الشخصية وسير الملوك والساسة قد وقعت فى خطأ أبعد مدى من ذلك الذى تورط فيه توماس كارليل الذى كان يدين بنفوذ الفرد الاكبر فى كتابه « الابطال » فمن السخف تقليل اهمية الشخصيات العظيمة فى التاريخ وتأويلها الى مجرد مرآة للتيارات العصرية او الجنسية فى زمن ما او اعتبار أن البطل روح سائدة للعصر مجسمة . فبالعكس هناك شخصيات انقلابية ثورية مبعثرة فى فترات مدى الدهور على بساط الحوادث مما اثروا فى تغيير مجراها وتحويلها فى طرق لم يمكن التنبؤ بها قبلا

ومثل ذلك اسكندر الاكبر ومحمد ونابوليون فاسم كل منهم مقترن بحوادث فوق مقدور الشخص الموهوب العادى وذلك بقدرة السمو الشخصى فلو خلف فليب المقدونى مشخصا عاديا لما تم فتح الشرق او توطيد دعائم دويلات يونانية على نهر سيحون (الاكسوس) او ضم الشام ومصر للعالم الغربى مدة تسعة قرون وشخصية محمد لهى شخصية انقلابية ثورية تفوق ذلك الحد فلم تنتج بلاد العرب قبله او بعده فردا أثر فى مجرى تاريخ العالم . ويكون من المضحك حقا الادعاء أنه نتيجة منطقية محتمة لحالة بلاد العرب الفكرية والاقتصادية فى القرن السابع قبل المسيح . وفى العصور الحديثة نرى ان نابوليون شخصيته انقلابية حقا وقد قال احد مشاهير المؤرخين مرة ان الحكم العسكرى المطلق هو الخاتمة المحتومة للثورة فى فرنسا بحيث لو لم يكن بونابرت هو ذلك الحاكم بأمره لكان مورو هو ذلك الرجل. فبطبيعة الحال كانت الديكتاتورية العسكرية هي الخاتمة الطبيعية لحكومة الديركتوار المنكودة الحظ . بيد ان هناك دكتاتورا ودكتاتورا. فقد كان مورو ضعيف الخلق والارادة ولو انه كان على جانب كبير من المقدرة الحربية فى حين توفرت فى نابوليون قوة الطموح والمقدرة الحربية والمهارة فى التنظيم والتدجيل الى درجة العبقرية

ثم اختتم السر اومان محاضرته بهذه الملاحظة: مهما فكرنا ودبرنا امورنا بعقل ورويه فالسوبرمان من جهة او من الصدفة العمياء من جهة أخرى قد تقضى على تدبيرنا بالفشل. فقد شيد قدماء الاغريق مذبحا لآلهة الحظ . ولست أود فى هذا المقام ان احذو حذوهم إذ الركون الى الصدفة ليس من حسن السياسه يدانى اصر على ان الاعتقاد فى منطق الاشياء الذى لامناص منه كما يسمونه هو من الخطر بقدر ترك الاشياء تجرى بجراها فاوصيكم ان لا تعتقدوا فى مبدإ الحتمية